الفصل الأول

هل للعرب والمسلمين قابلية للاستعمار؟

عندما نريد أن نتفحص شعباً من الشعوب ونبحث في نفسيته وروحه وعقله عن ما يسمى القابلية للاستعمار لا نعثر على ذلك لأن القابلية أمر طارئ وليس فطرياً، فالفطرة التي أوجدها الله في الإنسان ترفض الاستعباد وتأبى الاسترقاق، بل هي تنطلق بكل ما أوتيت من قوة روحية نحو الحرية وفضائها الرحب الواسع. وحين نطبق قانون الفحص والكشف على الإنسان العربي لنرى ما إذا كان لديه قابلية للاستعمار أم لا، يقف أمامنا علم النفس التحليلي ـ إن صحت نظرياته ـ ليشير لنا بوضوح إلى تكوين النفس عند الإنسان العربي. ويقف أمامنا علم الشعوب (الأنثروبولوجيا) ليدلنا على أساليب البحث في الشعوب وعاداتها وتقاليدها وتكوينها الديني والاجتماعي وكذلك تقف أمامنا معطيات التاريخ العربي القديم الذي يدرس منشأ العرب وأراضيهم وآفاق تحركهم.

في مدار علم النفس نعثر على نظريتين متناقضتين، نظرية عقدة السادية، ونظرية عقدة المازوخية.

الأولى، تختصر كلامها بأن بعض الناس فيهم حب التلذذ بتعذيب الآخرين فيسمون ساديين والثانية، تختصر كلامها بأن بعض الناس يحبون أن يُمارس عليهم العذاب وهم يتلذذون لذلك.

أما النظرية الأولى، فبعيدة كل البعد عن الشخصية العربية. ولم يعرف عبر التاريخ أن عربياً لديه عقدة التلذذ بتعذيب الآخرين.

أما النظرية الثانية، فهي التي تتساوى مع ما ينظره دعاة الاستعمار. بمعنى أن الإنسان العربي قد يتلذذ وهو يرى الآخرين يعذبونه. والقبول بالاستعمار بل القابلية للاستعمار تعني أن يتلذذ العربي بوقوع الظلم عليه والتعذيب. فهل هذه النظرية تنطبق حقاً على الإنسان العربي؟

لنتفحص شخصية هذا العربي ونسبر أعماق نفسه وعقله وروحه. فماذا نرى وماذا نجد؟

يقول ابن خلدون: العرب أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبُعد الهمة والمنافسة في الرياسة. قلما تجتمع أهواؤهم، من أجل ذلك لا يحصل لهم الملك إلا بصيغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة[1].

وهم أقرب الناس إلى الشجاعة لأنهم قائمون بالمدافعة عن أنفسهم. ولا يكلونها إلى سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم. فهم دائماً يحملون السلاح ويتلفتون عن كل جانب في الطرق. قد صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية[2].

ولننظر إلى ما يقوله المستشرق أوليري: العربي يملؤه الشعور بكرامته الشخصية حتى ليثور على كل شكل من أشكال السلطة. وحتى ليتوقع منه سيد قبيلته وقائده في الحروب الحسد والبغض[3].

ويقول لامانس: إن العربي نموذج للديمقراطية، ولكنها ديمقراطية مبالغ فيها إلى حد بعيد. إن ثورته على كل سلطة تحاول أن تحد من حريته ولو كانت في مصلحته ويبلغ حب العربي لحريته مبلغاً كبيراً حتى إذا حاولت أن تحدها أو تنقص من أطرافها هاج كأنه وحش في قفص. وثار ثورة جنونية لتحطيم أغلاله والعودة إلى حريته. وقد حاول الفرس والروم أن يخضعوا العرب لحكمهم اتّقاء لغزوهم ولكنهم كانوا يعدلون عن ذلك لما يستلزمه فتح جزيرة صحراوية من ضحايا في الأنفس والمال. ولأن طبيعة العيشة العربية جعلتهم لا يخضعون لقوة واحدة إذا تغلب عليها المحارب خضعت له الأمة ومن أجل ذلك رأى الفرس والروم أن خير وسيلة لدفع شر العرب أن يساعدوا بعض القبائل المجاورة على أن يقروا على التخوم يزرعون ويتحضرون ثم يكونون لهم ردئاً يصدون غارة الأعراب الذين يغزون وينهبون[4].

فإذا كانت الشخصية العربية على هذا الشكل قبل الإسلام فكيف أصبحت بعد أن دخل العرب في الدين الجديد؟

في هذه الحال، نستطيع أن نرى مئات التعاليم الإسلامية التي زرعها الإسلام في نفس العربي. فإضافة لما كان يتمتع به من شعور بالحرية والكرامة وعدم الخضوع لحاكم يحكمه أضاف الإسلام فيه وفي شخصيته قيماً جديدة زادت لديه من الاعتزاز بنفسه أكثر فأكثر.

يقول الخليفة عمر رضي الله عنه: نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ومن اعتز بغير الله ذل.

وهذه العزة هي التي خلقت في الإنسان المسلم الاندفاع دون توقف لنشر الدعوة ليس آبهاً بالمصاعب والعقبات والحروب والفتوح.

وقد مضى من عُمر الدعوة بضع عشرات من السنين أصبح ما يسمى الحوض العربي والإسلامي يدين كله بالإسلام.. وهذا يعني أن نفسية هذا الإنسان المسلم هي نفسية متحركة مندفعة وليست ساكنة خامدة. ولعل أقل ما يمكن أن نجده في سمة القابلية للاستعمار السكون والدعة والخمود.

ويمكن أن نرى صفات الأمة وسماتها من خلال وصف القرآن الكريم لها. حيث رسخ الإسلام فيها قيماً جديدة أو أخرى متطورة حتى باتت هذه السمات أساسية في تركيب أي مسلم.

فهذه الشخصية ترفض الظلم أياً كان شكله. وبديهي أن القابلية للاستعمار تنفي عن الإنسان رفضه للظلم. فرفض الظلم والقابلية للاستعمار يتعارضان في تركيبة النفس السوية.

وقد أقر سبحانه الإذن للذين ظلموا بأن يقاتلوا ليدفع عنهم الظلم. فنلاحظ أن رفع الظلم اقترن بالقتال والدفاع عن الحق. وهو أمر يستحق من الإنسان هذا الدفاع وهذا القتال حتى لو كانت النتيجة الموت دونه.

يقول تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج: 39)

ويقول تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ (الشعراء: 227).

وفي سبيل دفع العدوان والباطل والانتصار للحق رسخ القرآن الكريم في النفس المسلمة حب التضحية بالمال والنفس وعدم البخل بأي شيء في سبيل ذلك.

يقول تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (التوبة: 41).

ويقـــول تعـــالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (العنكبوت: 69).

ويقـــول تعـــالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾ (التوبة: 20).

وقد رسخ مفهوم الجهاد في النفس المسلمة، وحدد القرآن الكريم أسبابه وغاياته. فهو بذل الجهد في سبيل غايات نبيلة أهمها دفع الظلم عن النفس والمال والعرض والبلاد.

ومن طبيعة الخطاب القرآني للإنسان المسلم حضه على عدم موالاة الكفار والمنافقين، فالموالاة شكل من أشكال القابلية للاستعمار. باعتبارها الميل لملل الكفر على حساب ملة الإسلام وقد جاءت آيات كثيرة تحث على عدم الموالاة.

يقـــول تعـــالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ (المائدة: 57).

ويقول تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ ﴾ (آل عمران: 28).

ويقـــول تعـــالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (المائدة: 54).

وقد فصلت هذه الآية صفات المؤمنين الراسخة وأهمها أن المؤمنين يحبون الله، وهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، مجاهدون لا يخافون في الله لومة لائم.

فهل هذه صفات من لديه قابلية للاستعمار؟ أم هي صفات الأعزاء ذوي الكرامة؟

ولعل الملفت للنظر أن هذه الأمة المسلمة منذ نشأتها الأولى وتكوينها الأول في المدينة المنورة وامتداداً عبر القرون الإسلامية الأولى عقدت معاهدات مع الآخرين وتبادلت الرسائل والحوارات. وكانت جميعها تُظهر العزة العربية والإسلامية. فلا تتنازل عن حق مهما كانت الظروف ومهما كان عدوها قوياً.

فهي من جانب تخضع للحق وترفض الباطل. لا تنتقص من حق الآخرين في وجودهم ودينهم وحياتهم الاجتماعية، لكنها تحافظ على شخصيتها ولا تسمح لأحد أن يمسها بالتجريح والإهانة، ولنا أمثلة كثيرة من ذلك:

معاهدات رسول الله ﷺ ورسائله إلى الملوك والأمراء وعهوده مع غير المسلمين. وكذلك معاهدات الخلفاء الراشدين ووصاياهم لجيوش الفتح ومعاملاتهم مع غير الأمة المسلمة من يهود ونصارى وغيرهم.

وإذا نظرنا إلى عصر الرشيد والمأمون أدركنا كم كانت أمة الإسلام عزيزة الجانب تأبى أن تُمسّ بسوء أو تهديد ويخشاها الأعداء ويحسبون لها ألف حساب.

فلو كانت لهذه الأمة قابلية للاستعمار لما كان حالها ذلك الحال، ولو كانت ترضى تهديد الآخرين لدولتها لما قامت الحروب الدفاعية الرادعة في بدر والقادسية واليرموك وحطين وعين جالوت وغيرها من المعارك الفاصلة في التاريخ الإسلامي.

ومن أمثلة ذلك العلاقات التي سادت بين الإمبراطورية الرومانية والدولة العباسية زمن الخليفة العباسي هارون الرشيد.

يقول ابن الأثير: وكان يملك الروم حينئذ امرأة اسمها ريني فخلعتها الروم وملكت نقفور فلما استوثقت الروم لنقفور كتب إلى الرشيد:

من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب: أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ وأقامت لنفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً تحمل أضعافها إليها. لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن. فإذا قرأت كتابي هذا فاردد ما حصل لك من أموالها وافتدِ بنفسك بما تقع به المصادرة لك وإلا فالسيف بيننا وبينك.

فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب حتى لم يقدر أحد أن ينظر إليه دون أن يخاطبه. وتفرق جلساؤه فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم. قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام.

ثم سار من يومه حتى نزل على هرقلة ففتح وغنم وأحرق وخرب. فسأله نقفور المصالحة على خراج يحمله كل سنة فأجابه إلى ذلك. فلما رجع من غزوته وصار بالرقة نقض نقفور العهد وكان البرد شديداً. فرجع إلى بلاد الروم في أشد زمان وأعظم كلفة حتى بلغ بلادهم فأقام بها حتى شفى واستشفى وبلغ ما أراد)[5].

ولننظر إلى رد الخليفة العباسي المأمون على إمبراطور الروم ثيوفيل بعد أن بعث له الأخير بكتاب فيه من المعاني ما يوحي بالتهديد والوعيد والعدوان على أرض المسلمين.

جاء في الكتاب: (أما بعد، فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة، ودعوت إليه من الموادعة وخلطت فيه من اللين والشدة مما استعطفت به شرح المتاجر واتصال المرافق وفك الأسارى ودفع القتل والقتال، فلولا ما رجعت إليه من أعمال التؤدة والأخذ بالحظ في تقليب الفكر وألا اعتقد الرأي في مستقبله إلا في استصلاح ما أوثره في معتقبه لجعلت جواب كتابك خيلاً تحمل رجالاً من أهل البأس والنجدة والبصيرة ينازعونكم عن ثكلكم ويتقربون إلى الله بدمائكم ويستقلون في ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم. ثم أوصل إليهم الإمداد وأبلغ لهم كافياً من القوة والعتاد هم أظمأ إلى موارد المنايا منكم إلى السلامة، من مخوف معرتكم عليكم. موعدهم إحدى الحسنيين، عاجل غلبة أو كريم منقلب. غير أني رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحجة من الدعاء لك ولمن معك من الوحدانية والشريعة الحنيفية. فإن أبيت ففدية توجب ذمة. وتثبت نظرة. وإن تركت ذلك ففي يقين المعاينة لنعوتها. وما يغني عن البلاغ في القول والإغراق في الصفة والسلام على من اتبع الهدى)[6].

ومن خلال هذا الكتاب، ندرك أن خليفة المسلمين يرفض التنازل عن حق بل يستعد لحرب. وفعلاً فقد جاء في تاريخ الطبري وكذلك اليعقوبي أن المأمون استعد لحصار عمورية لكن ثيوفيل أرسل خطاباً يعرض فيه أن يرد نفقات حملته ويسلم من لديه من الأسرى ويصلح ما خرب الروم من ثغور المسلمين على أن يضع المأمون الحرب عنه وطلب إجراء الصلح والمهادنة بينهما بدلاً منها أو التهديد كما سبق[7].

لو نظرنا إلى موقف الرشيد من نقفور ملك الروم، وكذلك موقف المأمون من ثيوفيل لأدركنا أن الشخصية العربية المسلمة ترفض قطعاً أن يكون لديها أي قابلية للاستعمار أو أي قابلية للتخلي عن جزء يسير من حقها وكرامتها.

ودون تفصيلات، أو اللجوء إلى ما دونته كتب التاريخ عن الصدام الذي استمر حدوثه عبر مئات السنين، تبين لنا الأحداث كيف رفض المسلمون السكوت عن غزو القدس واحتلالها وكيف قاد صلاح الدين الأيوبي جيوش المسلمين لاسترداد القدس وبقية المناطق العربية التي احتلها الصليبيون. ثم كيف نهض المسلمون يدافعون عن أراضيهم ودينهم في معركة المنصورة ودمياط. ثم كيف استطاعوا الخروج من محنة غزوة التتار لبلادهم فجرت معارك طاحنة كان أهمها معركة عين جالوت. كل هذه المعارك الفاصلة ألا تكفي لتدلل على أن الأمة المسلمة ليس لديها قابلية للاستعمار.

وإذا انتقلنا إلى العصر الحديث، أي منذ بدأ التمدد الاستعماري الغربي باتجاه الشرق العربي، نرى أن التاريخ الحديث نفسه يسجل آلاف الثورات التي واجهت الاحتلال والاستعمار.

احتلت فرنسا الجزائر عام 1830م، وظلت قابعة بنيرها الاستعماري على كاهل الشعب الجزائري مئة وثلاثين عاماً. لم تهدأ الثورات فيها ولم يسكت الشعب العربي على الاحتلال. فقدم هذا الشعب أكثر من مليون شهيد. وقامت ثورته الكبرى بدءاً من عام 1954م، حتى استطاعت أخيراً دحر الاحتلال على الرغم من بشاعته وادعائه أن الجزائر قطعة من فرنسا.

وفي المغرب العربي، استطاعت الثورات المتعاقبة التي قادها عبد الكريم الخطابي وغيره أن تدحر الاستعمار الفرنسي وإلى غير رجعة.

وفي مصر قامت ثورة عرابي وأسيلت الدماء غزيرة في سبيل تحرير مصر من الإنجليز ثم قامت ثورة زغلول ومصطفى كامل عام 1919م، وظلت تعيش في مخاض إلى أن تمكنت الثورة القومية عام 1952 من إخراج الغرباء عن حكم مصر. ومن ثم إخراج القوات الأجنبية من قناة السويس ومن مصر كلها.

وفي ليبيا، راحت الثورة تنتشر منذ بدء الاحتلال الإيطالي لها، فقامت ثورة المختار واستمرت طويلاً. مقدمة التضحيات وآلاف الشهداء والمرحّلين وظلت تعيش حالة الغليان إلى أن قامت الثورة الشعبية عام 1969، فطردت القوات العسكرية الأجنبية التي كانت تمارس الإرهاب والتجسس لصالح إسرائيل والقوى الاستعمارية.

وفي سوريا وبقية المشرق العربي قامت ثورات كثيرة منذ عشرينات القرن وحتى استقلال سوريا عام 1946م وقدم الشعب العربي فيها آلاف الضحايا.

أما في فلسطين، فقد انفجرت ثورة القسام منذ عام 1935، واستمرت حتى عام 1939، ثم لحقتها ثورات فلسطينية إلى أن أقيم الكيان الصهيوني عام 1948، ومنذ عام 1965 راحت الثورة المعاصرة تتسع وتنتشر وتتعمق ومازال الشعب الفلسطيني حتى هذا اليوم يعيش حالة جهاد مستمر ضد الاحتلال الصهيوني.

ولو أحصينا ما قدمته الثورات العربية من شهداء وجرحى لأثبت لنا التاريخ أن أكثر الشعوب تقديماً للشهداء هو الشعب العربي.

ولو نظرنا اليوم إلى ما يقدمه الشعب العربي في العراق لأدركنا كم حجم المقاومين والمجاهدين وكم حجم الشهداء والضحايا. وكم حجم الدمار والخراب الذي يلحقه الغزو الأمريكي بالعراق.

إن كل هذه الثورات والضحايا والتضحيات ليست إلا الدليل القاطع على أن هذه الأمة ترفض الاستعمار والاستعباد مهما كان شكله ومهما حاولوا تزيينه بالشعارات والأكاذيب.

أما على المستوى الفكري والعقدي المعاصر، فإننا نرى أنه قد برز بعض المتقوّلين ودعاة الإصلاح ينادون باستجلاب الاستعمار، ويتصورون أن للأمة قابلية لهذا الاستعمار ولكن دعاة الدفاع عن شخصية الأمة وهويتها يقفون في المواجهة للتصدي لهذه الحملة المشبوهة. وعلى الرغم من التناقض الجاري اليوم بين الشعوب وبين بعض الأنظمة العربية والإسلامية، إلا أن المفكرين والكتاب من أصحاب الاتجاه العروبي الإسلامي يدركون أن المعركة الآن هي مع المستعمرين ودعاتهم. وهي معركة ذات اتجاهات متعددة

على المستوى المقاوم الذي نشهده في العراق وفلسطين وعلى المستوى الفكري الذي يتصدى للعولمة والغزو الفكري ويتصدى لمحاولات التشويه المستمرة التي يقصد من ورائها تشويه الهوية العربية الإسلامية. وتشويه دينها وتراثها وماضيها وحاضرها ومستقبلها.

والواقع أن الحملة الاستعمارية الحالية هي حملة متعددة الأساليب والاتجاهات ومتنوعة الأشخاص وليس غريباً أن نجد في كل عصر من يروّج للاستعمار وأفكاره. ويرحب دوماً بالزيف الغربي للديمقراطية والحرية التي يزينها الغرب بكل المساحيق حتى يخفي حقيقتها.

ونعتقد أنه كما جرى صراع فكري بين المتأثرين بالغرب والمدافعين عن العروبة وتراثها أيام رفاعة الطهطاوي ومن بعده طه حسين، وأشباههما، سيشتد الصراع الفكري بين دعاة التغريب اليوم، وبين من يدافعون عن أصالة العروبة وتراثها وعقيدتها ودورها.

ونعتقد أن الحملة اليوم، ستكون شرسة أكثر مما كانت عليه لأن دعاتها تجرؤوا على الثوابت العربية الإسلامية، حتى وصلت دعوتهم حداً تنادوا فيه إلى استجلاب الاستعمار والدعوة له. ولو أدى ذلك إلى احتلال جديد للوطن والأرض وإلى استعباد الناس من جديد.